القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

الاشتراكية والبولشفية

﴿ الاشتراكية ﴾: اول ما وضعت هذه الكلمة في معاجم اللغات الاوربية حوالي سنة ١٨٣٥ وضعها (روبرت اون) المتوفى سنة ١٨٥٨ وتتجلى البواعث التي ادت الى الاشتراكية بعض التجلي بالاشارة الى حياة هذا الرجل الانكليزي الغريب في اطواره والى الاعمال الفذة الثمينة التي قام بها . فقد كان من كبار رجال الاعمال ولهُ محدثاتٌ جمّة في صناعة غزل القطن تشف عن قدرة وذكاء متوقد ، وجمع ثروة لا بأس بها ، وقد رأى بام العين الشقاء المخيم على العمال في معمله في (مانشستر) وضياع شطر عظيم من حياتهم عبثاً فاخذ على عاتقه اصلاح حالهم وتحسين العلائق بينهم وبين مخدوميهم ، ومن سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٢٠ ادخل من الاصلاحات على من كان في خدمته من العمال في معمله في (نيولنارك) وعددهم الفان ما يعد عجباً عجاباً . قال الكاتب الشهير ج . ولز[1] عنه انهُ خفض ساعات العمل تخفيضاً محسوساً وابطل تشغيل الاطفال وحسّن البناء من الوجهة الصحية وزاد في مصارف العمال وعمّر بيوتهم العلمي العملي وخصص لهم راتباً يتقاضونهُ في اوقات البطالة وكساد الاسواق وانشأ المدارس الحديثة وذهب الى ان النساء والرجال هم ابناء البيئة التهذيبية التي يعيشون فيها ، ثم بفضل جهوده والدعاية الواسعة النطاق التي بثها اصدر البرلمان الانكليزي في سنة ١٨١٩ القانون المشهور باسم « قانون المصانع » وبموجبهِ لا يجوز لاصحاب المعامل ان يستخدموا الاطفال من سن التاسعة فما دون ولا ان تتجاوز ساعات العمل الاثنتي عشرة في اليوم ، ولكن اهل الجمود من اعداء التجديد والذين لا يحسبون حساباً للفقراء والذين لهم مصالح يخشون عليها من البدع التي ادخلها (اون) — ان هؤلاء جميعاً تربصوا بهِ واعدوا العدة لمحاربتهِ فلم يجدوا خيراً من اخذه بالآراء الحرة التي يدين بها مما يخالف النصرانية وعقائدها فحملوا عليهِ حملة كنسية قروسطية كان لها في تلك الايام السحيقة أثر سيء عليهِ

(1) The Outline of History p. 109

ومن الطف انتقاداته للعملة وتقلب اسعارها قوله اننا ما دمنا نؤدي ثمناً على الاعمال بعملة متقلبة فأملنا بالحصول على العدالة الاقتصادية لن يزيد على املنا بالحصول على ذنب زيدها مضبوطة في حين تتقلب ساعاتها تقلب الحرباء

ومن تجاربه انهُ حاول اصدار اوراق مالية تقدر قيمتها بساعات العمل لعقيدته ان العمل هو القيمة الثابتة ، فهنالك ورقة مالية بساعة واحدة من العمل وورقة بخمس ساعات وورقة بعشرين ساعة . وقد تولدت من تأثيره المباشر وآرائهِ المبتكرة النقابات التي تملأ الاوساط الاقتصادية في عصرنا هذا وربما بلغ اعضاؤها ثلاثين مليوناً او اربعين مليوناً من الخلق

وهذه الاشتراكية التي وضع اساسها العملي (روبرت اون) هي اشتراكية سامية علقت جميع آمالها على الذوق السليم في الناس بان ينهضوا ويعيدوا تنظيم المجتمع ويصلحوا ما فيهِ من عيوب سياسية واقتصادية واجتماعية . فهذا كما يرى القارئ مخالف لاشتراكية (ماركس) وما فيها من الاعتماد التام على الكره المتغلغل في صدور العماليك لاهتضام حقوقهم ولتجردهم من الاموال والاملاك واتخاذ هذا الكره قوة عنيفة دافعة لاحداث الانقلاب الاشتراكي المنشود . فهذه الاشتراكية العنيفة هي اساس الشيوعية التي تهدد النظم الحاضرة . وقد نجح (ماركس) في اذكاء نار الثورة الاجتماعية حتى ان تعاليمه ادت الى تأليف عصبة من العمال من انحاء الارض وهي العصبة التي تسمى (الدولية الاولى) ويقال بالاجمال ان الصراع العنيف بين الاشتراكيتين — اشتراكية (اون) واشتراكية (ماركس)— انتهى بتغلب هذه على تلك كما هو ظاهر من ميل الاشتراكيين في انحاء الارض الى تنظيم حركة العمال لاتخاذها كما يدعون سلاحاً ماضياً يتقدون بهِ النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من ايدي محتكريها من اهل التملك الخاص

وتفرق الاشتراكية الحديثة تفريقاً جليًّا بين التملك الشخصي والتملك الجمهوري ، ومدار حركتها ان تكون الارض وجميع الوسائل الطبيعية للانتاج والنقل والتوزيع بيد الجمهور ، وان يكون للفرد في ضمن هذه الحدود الشيء الكثير من التملك الشخصي والحرية الذاتية الطليقة

ولكن ليت شعري كما قال (ولز) من هو الجمهور الذي يستولي على هذه الثروة المشتركة؟ أيكون مؤلفاً من الملك وحاشيته ام من اهل المدينة ، من اهل المقاطعة ام من اهل المملكة من الامة ام من الانسانية جمعاء ؟ وهنا نجد الاشتراكية صامتة لا تحير جواباً . ثم اذا انكر الاشتراكيون على الفرد ان يدعي حق التصرف في منجم من المناجم او في قطعة من الارض فكيف يسمحون لامة من الامم ان تحتكر المناجم او طرق المواصلات او الثروة الطبيعية في الارض التي تقيم بها وتمنع منها سائر العالم ؟

اما الشيوعية فهي الغاء التملك بتاتاً اي جعل جميع الاشياء ملك جميع الاشخاص

﴿ البولشفية ﴾ : ابتدأت الثورة الروسية في سنة ١٩١٧ بتفكك الجيش الروسي في الجبهة

الالمانية ورجوع افراده الى القرى والمدن يحرقون وينهبون ويقطعون السابلة الى ان ازل التبصر الضعيف عن عرش آل رومانوف وتبوأت الحكومة المؤقتة مقعدها في الحكم وعلى رأسها (كرنسكي) الرجل الاشتراكي الديموقراطي الوهمي الهستيري ولكن ما عتم ان اكتسحه البولشفيك بزعامة (نيقولاي لنين) فقبض هذا على ازمة الامور بيد من حديد ونشر على حكومات العالم منشوراً يعد اعظم تحدٍ حازم ظهر منذ سنة ١٧٨٩ الى اليوم وفيه الدعوة الى فكرة صريحة في الحكم لم تكن معهودة من قبل

والواقع ان البولشفية او الشيوعية هي نظرية (ماركس) مفسرة تفسيراً ينطبق على الافكار والاحوال في القرن العشرين ، ومع ما كان عليه تلاميذ هذا الرجل الثائر من الاتفاق على أساس تعاليمه الاقتصادية فقد اختلفوا جد الاختلاف على مضامين هذه التعاليم العملية والسياسية. فالحزب الاشتراكي الديموقراطي الجرماني الذي يتفكك اليوم أمام الحملات الهتلرية الوطنية ومن حذا حذوه من الفرق ومنهم المنشفيك الروس اشتغلوا بتنظيم الأحزاب الاشتراكية البرلمانية واستخدموها عند سنوح الفرصة لتأييد الاصلاحات الاجتماعية ، على ان تكون الغاية المنشودة الانتصار على الدولة انتصاراً تدريجيًّا وتحويل الرأسمالية على مهل الى الاشتراكية وذلك باتخاذ اجراآت تشريعية تبدل شكل الحياة في المجتمع شيئاً فشيئاً . لكن البولشفيك عرضوا تفسيراً آخر لتعاليم (ماركس) خلاصته ان الدولة الرأسمالية لا يمكن انقاذها من القابضين على زمامها واستخدامها في المصالح الاشتراكية فلا بدَّ من سحقها اولاً ثم يتوجب على العمال بعد تتويج هامتهم باكاليل الظفر في هذا الصراع العنيف ان يخلقوا في محلها غداة ثورتهم دولة جديدة مختلفة في نوعها وروحها تكون سلماً لخدمة الاغراض البعيدة التي ينشدونها

بيد ان هذه الدولة الجديدة لا يمكن ان تكون في حدّ ذاتها اشتراكية او شيوعية بالمعنى التام لان فكرة «دولة اشتراكية» في نظر الرجل الاشتراكي القح هي فكرة يناقض بعضها بعضاً ، فالدولة في نظره اداة تستولي عليها طبقة من الناس كالطبقة الرأسمالية لارغام طبقة أخرى كطبقة العمال. ولكن متى توطدت اركان الاشتراكية في العالم فارغام طبقة لاخرى يتلاشى من الوجود لانه لا تبقى ثمة طبقات بالكلية ، بل الذي يستحدث هو اداة لتسيير أمور الناس تدعى «الآلة الادارية»

غير ان الانتقال الى الشيوعية من بعد سحق الرأسمالية لا يتم دفعة واحدة بل لا بد من فترة تكون فيها السلطة قاهرة بيد « الصعاليك » فان هؤلاء مضطرون في الدفاع عن حوزتهم الى تنظيم صفوفهم ومحاربة « الرجعي » في بلادهم والقضاء على الرأسماليين قضاء مبرماً لا تقوم لهم قائمة من بعده واستئصال شأفة الطبقة التي كانت حاكمة بعد تجريدها من مالها ثم يأخذون في التمرن على المعيشة في نظام ليس فيه طبقات الى ان يكتسبوا العادات الاجتماعية والاشكال النظامية الضرورية لتسيير المجتمع الخالي من الطبقات. وتعرف هذه الفترة بفترة « استبداد

الصماليك انتاهر » وهذه الجملة هي مما كتبه (ماركس) نفسه وتنبأ به ويقول الشيوعيون ان الروسيا لا تزال تجتاز هذه المحنة منذ سنة ١٩١٧ الى اليوم

وعلى القارىء ألا ينسى ان المثل الاعلى الذي ينشده الشيوعيون من كل الانقلاب الذي يحدثونه هو عند التحليل النهائي لا يختلف في شيء عن الاشتراكيين الا في هذه الفترة الاستبدادية الحاسمة ، فالشيوعيون والاشتراكيون متفقون على ان يكون التدرج هو من الحالة الرأسمالية التي نحن عليها الى الحالة الاشتراكية المنشودة بيد ان اولئك يطلبون ان يكون الانفصال بين الحالتين حاسماً مطلقاً وان يبنى الجديد من أسس جديدة مباشرة في بيئة مستعدة قد هيأها العاملون للعقول بالعناية التامة وان يكون بناؤها بايدي دولة تتمتع بسلطان قاهر لا حد له وهي تعمل باسم طبقة الصماليك ثم تزول من الوجود حالما يصبح الاصلاح الاشتراكي وطيد الاركان . وقصارى القول ان الشيوعيين يذهبون الى وجوب هذه الفترة الانتقالية بين سقوط الرأسمالية وقيام الاشتراكية تكون فيها طبقة الصماليك ذات سلطان قاهر تتوسل الى تحقيق غايتها العظمى بدولة من صنع يدها

على ان الطبقة بمجموع افرادها لا تستطيع ان تملي ارادتها ولا ان تدير شؤون الحكم مباشرة بل لا بدَّ لها من وسيط يقف بينها وبين القوة الاجرائية يعني لا بدَّ لها من رأي عام منظم يمثل طبقة الصماليك ويعبر عن افكارها ، وهذا والحق يقال هو وظيفة (الحزب الشيوعي) المفتَّح الابواب لكل سلوك يشعر بطبقته ويظهر الاستعداد الكافي للاشتراك في الاعمال والتبعات الملقاة على عاتق الحكومة المستجدة . وما أشبه هذا الحزب الشيوعي بجمعية (الاتحاد والترقي) العثمانية وسيطرة مركزها العام على الدولة وعلى مجلس النواب . ويجري الدستور (السوفيتي) على خلاف القواعد الاساسية في الديموقراطيات النيابية — يعني ان حقوق الانتخاب وان كانت متسعة الا انها حقوق محصورة في الطبقة العاملة ومحرَّمة على سائر الافراد التابعين للطبقات المستثمرة ، ويعد من هذه الطبقات المستثمرة اهل التجارات الخاصة والفلاحون الذين يستخدمون الاطباء والمحامون . والقاعدة التي يتمشى عليها الانتخاب ان ليس « لكل فرد واحد صوت واحد » بل « لكل عامل واحد صوت واحد » تحاشياً من ان يتمتع الطفيليون والذين هم عبء على المجتمع بمثل هذا الحق الغالي . ولما كان الاقتراع في روسيا السوفيتية يجري علناً او «على المكشوف » فلا مجال كثيراً للرأي الفردي في انتقاء الافراد بل القائمة المبسطرة التي لا ترد هي قائمة الحزب الشيوعي . ويراعى في التمثيل جانب الصناع من أهل المدن دائماً لئلا يغرقهم سواد الفلاحين الذين يملأون السهل والجبل

وفي نظر الروس الحمر ان الاجراآت المتخذة لنيل عروش التجار والفلاحين المتخومين ، وان الحملة المنظمة لجعل الزراعة مشتركة ، وان مشروع السنوات الخمس لتقوية الصناعة — وقد تجدَّد

حديثاً — كل ذلك خطوات ثابتة في الطريق الموصلة الى النظام الاشتراكي، ومتى توطد هذا النظام تصبح حكومة الطبقات عملاً لاغياً لان الاشتراكية تكون قد قضت على وجود الطبقات نفسها

ولا بدّ لنا هنا من تنبيه القارىء الى أن الثورة الروسية في نظر الشيوعيين ليست نهضة وطنية محلية مستقلة غايتها احداث مجتمع اشتراكي في روسيا فقط وانما هي جزء من انقلاب عالمي لا تكون انتصاراتها وطيدة الاركان من غير تحقيقه والحصول عليه . وستبقى الدولة الطبقية في روسيا — وهي دولة الصعاليك — مادامت الرأسمالية في الخارج تهدد نظام «الاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية» بخطر الرجعى او ما دام في اية ناحية من انحاء الارض جزء من طبقة الصعاليك ينتظر ساعة الفرج ويوم التحرير . لاجرم ان زوال الدولة في البلاد الروسية تأخر الى اجل غير مسمى . وما العلائق السلمية التي عقدها الاتحاد السوفيتي بالعالم الخارجي الرأسمالي سوى انواع من الهدنة المؤقتة في حرب طبقية ستنتهي فقط في مجتمع تطمئن فيه الاشتراكية وتأمن على حياتها من الاخطار

ولا يألو الحزب الشيوعي جهداً منذ الآن في بناء الهيئات المتنوعة كالمتحدات او المؤسسات القائمة على الادارة الاقتصادية حتى اذا حان الزمن اصبحت عاملة من نفسها مكتفية بطريقتها من غير حاجة الى ادارة سياسية تشرف عليها . ومن هذه الهيئات ما يسمى «ترست» اي المتحدات التي تدير صناعات الدولة ومنها «اللجان التصميمية» وهي التي تضع الخطط العملية ومنها «المجالس الادارية» وهي التي تنظم الحياة الاقتصادية ، ومنها المتحدات التجارية والجمعيات التعاونية وهي النقابات ذات المقام المعترف به في ادارة الشؤون ، فهذه الهيئات جميعاً هي ادوات الحكم الاجتماعي والغاية منها ان تحل محل الدولة الطبقية وادارة الصعاليك القاهرة وذلك عند ما تحل الساعة التي تختلف فيها الادارة الاقتصادية الحكومة السياسية

هذه بالاجمال هي الطريقة السوفيتية وما فيها من التقسيم الثنائي المبني على تمثيل الصعاليك تمثيلاً مزدوجاً في الادارة ، الواحد باعتبارهم الطبقة الغالبة في المجالس السوفيتية في المديريات والمقاطعات وفي مؤتمر الدولة العام والثاني باعتبارهم الطبقة الحاكمة في الحزب الشيوعي وهو مؤلف من النخبة المنتخبة من افرادهم ولهُ فروع منتشرة في طول البلاد وعرضها وما اشبه هذه الحالة بالحالة التي كانت عليها الدولة العثمانية عقب ثورة سنة ١٩٠٨ كما قلنا يوم تربع الاتحاديون على دست الحكم فكانت المجالس على انواعها — مجالس الادارة ومجالس الولايات ومجلس المبعوثان — مؤلفة منهم او من اكثريتهم من جهة وكان المركز العام للاتحاد والترقي من جهة اخرى مهيمناً على الحكومة مباشرة وهو يعين لها السياسة التي تسير عليها . ووراء ذلك قوة ثالثة هي قوة التنظيم الاقتصادي من نقابات ومتحدات ومشروعها الاقتصادي المستمدة من تنفيذه وهو مشروع السنوات الخمس ثم الايمان المنتهب بالقوة الكامنة في الشعب

وامكان استنهاضها الى العمل الدائم الذي لا ينضب

فهذا السعي لاستمالة الصعاليك واستثارة حماستهم وتوجيه ارادتهم شطر هذا النظام المستحدث وتأييده ، ثم هذا الجد في حض الناس على العمل وعلى الصراع لتثبيت المجتمع الجديد وتوثيق عراه واحداث جماعة مؤلفة من وطنيين على اساس التساوي بدلاً من وطنيين داخيين فقط — هذا كله هو الجوهر في الشيوعية اكثر من ذلك النظام الدستوري الجاف المطبق في الدولة الروسية

اما مشروع السنوات الخمس فقد ابتدأ في منتصف الليل من اول سنة ١٩٢٨ وانتهى في منتصف الليل من اول سنة ١٩٣٣ والغاية منه انعاش الصناعة والتجارة بتسخير ابناء البلاد في بذل الجهود مضاعفة على الانتاج والتوزيع وعمارة المباني العامة وفتح الطرق وما اشبه ذلك من الاعمال العمومية — يعني ان الحكومة السوفيتية ارادت الاسراع في تنظيم البلاد تنظيماً صناعيًّا اقتصاديًّا على حساب المعيشة العامة وانقاص مستواها فتحمل الروس ولا سيما العمال منهم في هذا السبيل ما كادت تنوء به ظهورهم لولا العقيدة المتأصلة في النفوس من ان ايمان الصعاليك يزحزح الجبال الراسيات . وذكرت الصحف ان البلاشفة لم ينجزوا مما وعدوا في هذا المشروع الذي جددوه سوى سبعين في المائة وان هم اعلنوا في مشارق الارض ومغاربها ان نجاحهم كان مائة في المائة . وهم لم يعدموا مع ذلك منتقداً مثل المستر (بتريك مرفي) يقول لهم في (الصنداي اكسبرس) مستهزئاً ان روسيا السوفيتية « حولت صناعتها من فوضى متفرقة عقيمة الى فوضى مركزية منتجة وحولت حياة سكانها من عبودية يتخبطون فيها كالاعمى الى رق ميكانيكي تحت اشراف ، وقد انجزت في تلك السنوات اعمالاً جليلة القدر ولكن تحت الجلد بالسياط . ويعجب المرء بتلك الاعمال اعجابه بالاهرام ولكنه يكره في نفس الوقت ان يسمع الخبر المحض عن طريقة بنائها »

ولا يفوتني في الختام ان اوجه انظار النخبة المنتخبة في العالم العربي ولا سيما الشبيبة منهم الى القوة الهائلة التي يستطيع التنظيم الدقيق مع الايمان الصادق ان يقوم بها ، وهذا التنظيم ظاهر في الفاشستية كما هو ظاهر في النازية ولكنني اعتقد انهُ كان في البولشفية اتم واجراً واكثر نشاطاً ، يدلك على ذلك ان الحزب الشيوعي في روسيا ما ادعى قط ان انصاره يزيدون على مليون ، والواقع ان عدد اعضائه لم يتجاوز في سنة ١٩٢٥ ربع مليون . « ولما كان هذا الحزب المنظم — على صغره — حازماً ومخلصاً ولم يوجد في جميع تلك البلاد المنكبكة العرى حزب آخر فيه من الشرف او الحزم او الكفاءة ما يمكنهُ ان يعتمد له أوان ينازعهُ فقد تمكن من الاستيلاء على بطرسبرج وموسكو ومعظم المدن الروسية وان يستميل اليه بحارة لاسطول الذين فتكوا بمعظم ضباطهم وان يصبح الأمر الناهي في الروسيا جميعاً »[1]

(1) Outline of History p 694